محمد العزيز كسوس (1903-1965) سيرة ومسيرة

د.أحمد بن جابو
المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة
تاريخ الإرسال: 2018-07-23 - **تاريخ القبول:** 2018-10-22

ملخص

يسلط هذا المقال الضوء حول شخصية محمد العزيز كسوس المتميزة بثقافتها المنتمية إلى النخبة المفرنسة في الجزائر ، و التي تلقت تكوينها من المدرسة الكولونيالية التي كانت سببا في صقل أفكاره، و وأدرك من خلال دراسته مدى عمق التناقضات البارزة بين حقيقة مدرسة الجمهورية الفرنسية و متطلبات المجتمع الجزائري، وقد عبر عن ذلك الكتاب الذي أصدره خلال منتصف عقد الثلاثينات من القرن العشرين ووصف الوضع الذي كان سائدا بالضيق أو الغمة الجزائرية التي تسببت السياسة الكولونيالية في استفحالها مما أدى إحداث التوترات في المجتمع الجزائري،. كما نتناول في هذا المقال آراء و أفكار هذه الشخصية حول إصلاحات التعليم الكولونيالي في الجزائر مطالبا بإصلاحه ليوفر للجزائريين حق التعلم وحق الحياة في جميع الأطوار وفي مختلف الأنواع .

الكلمات الدالة: محمد العزيز كسوس ، النخبة ،الإصلاحات ، التعليم الابتدائي ، الجزائر.

.

Abstract

This article describes the personality of Mohammed El Aziz Kessous as a figure of the French elite in Algeria. Trained by the colonial school, he accurately detected the contradictions between the ideas of the school of the French Republic and the expectations of Algerian society. In his book published in the mid-30s of the twentieth century he analyzed the reality of the Algerian malaise that led to tensions in the Algerian society. He also exposed his position regarding the education system

reforms undertaken, showing that these reforms did not guarantee the right to life to all Algerians.

Keywords: Mohammed El Aziz Kessous; the elite; reforms; education system

Résumé

Cet article décrit la personnalité de Mohammed El Aziz Kessous comme une figure de l'élite francophone en Algérie. Formé par l'école coloniale, il a décelé avec précision les contradictions entre les idées de l'école de la République française et les attentes de la société algérienne. Dans son ouvrage publié au milieu des années 30 du XXe siècle il a analysé la réalité du malaise algérien qui a conduit à des tensions dans la société algérienne. Il a également exposé ses positions sur les réformes du système de l'éducation engagées en montrant qu'elles n'ont pas garanti le droit à la vie à tous les Algériens.

Mots-clés: Mohammed El Aziz Kessous; l'élite; réformes; système d'éducation.

مقدمة

تعتبر شخصية محمد العزيز كسوس إحدى الشخصيات المتميزة في النخبة الجزائرية المفرنسة التي عرفت حقيقة الثقافة الفرنسية والسياسة الكولونيالية في الجزائر، فتميزت أفكاره بالجرأة في الدفاع عن حقوق المجتمع الجزائري في ظل سياسة الإصلاحات الاستعمارية والمطالبة بسياسة الإدماج التي تحقق مطالب المساواة في الحقوق السياسية والاجتماعية والثقافية، فخاض لذلك عدة نشاطات صحفية وسياسية وفكرية منتهجا في ذلك الأسلوب النقدي التحليلي سواء في كلامه الموجه لإدارة الاحتلال في الجزائر أو حتى بالنسبة لأصدقائه من الجزائريين من بني "وي وي" كما وصفهم في بعض كتاباته و الذي تميز فيه بالجرأة والحدة في الطرح.

1. نشأته وتكوينه

ولد محمد العزيز كسوس بدائرة القالة (La Calle) في25جوان 1903م من عائلة ميسورة الحال متأثرة بالثقافة الحديثة اشتغلت بالترجمة والقضاء وكان معاصرا وصديقا حميما لفرحات عباس (1899- 1985)، تلقى تعليمه في الجزائر وفرنسا

واستفاد من قوانين (Jules Ferry) الخاصة بتنظيم التعليم، تمكن من تجاوز إطاره الاجتماعي والثقافي المحلي وبحكم انتمائه إلى مجال الفكر فقد استطاع أن يقيم لنفسه شبكة من الروابط والعلاقات التي تسمح له بأن يكون له رأي حول إصلاح المجتمع الكولونيالي في الجزائر الذي كان هو من نتاجه.

1.1مرجعيته الفكرية والثقافية

تلقى تعليمه الابتدائي بمدرسة القل ثم تعليمه الثانوي بمدينة فيليب فيل (سكيكدة حاليا)، وفي سنة 1918 سنة قبل تعيين والده في منصب القائد، حصل على منحة دراسية بثانوية آرل (Arles) في فرنسا، كما استفاد من القرار الذي أصدره جونار (Jonnart) الحاكم العام بالجزائر الذي منح فيه 50 تلميذا للالتحاق بالثانويات الفرنسية في فرنسا، وفي العقد الثالث من القرن العشرين أتاح المسؤولون في الحكومة العامة الفرصة لبعض الجزائريين بتجاوز المستوى المعرفي المسموح به إلا في حالات استثنائية، لأن الغاية من هذه الرحلات الدراسية في فرنسا هي استقطاب هؤلاء الممنوحون وإيمانهم بالمكانة السامية المتميزة للثقافة الفرنسية من جهة، وإقناع وتكوين جيل من الشباب الجزائري المتعلم الذي يعمل على مساعدة فرنسا في مواصلة عملها وأخذها بزمام الأمور في الجزائر.

كما اعتقد المسؤولون الفرنسيون في فترة ما بعد الحرب العالمية الأولى بأن القيام بمثل هذه الأعمال هي من حسن التقدير والاعتراف للجزائريين بما قدموه من خدمات لفرنسا خلال الحرب العالمية الأولى.والتجربة التعليمية لمحمد العزيز كسوس في ثانوية آرل في فرنسا مكنته من التواصل مع التلاميذ الفرنسيين وتوجيهه نحو إتمام دراسته العليا بكلية الحقوق في الجزائر غير أنه قرر مواصلتها في باريس، ثم التحق بشبكة الطلبة المناضلين المغاربيين واختار لنفسه المهن الحرة مثل قرينه فرحات عباس. وحسب ما أدلى به كسوس فإنه يرى بأنه اكتسب تكوينا ثقافيا ووعيا سياسيا منذ انتقاله للعيش في المدينة.

كما أنه يرى في نفسه القدرة في التميز بين فرنسا الجمهورية والنظام الكولونيالي في الجزائر، والدراسة في باريس كانت تعني بالنسبة له " الوصول إلى حقيقة الثقافة الفرنسية " كما أعجب بالجمهوريين الفرنسيين بالمبادرة الديمقراطية التي مكنتهم من

الانتماء إلى النخبة الإصلاحية الموجودة في البلد الأصلي. وواصل سعيه من أجل توسيع المطالبة بالحقوق السياسية لصالح المسلمين الجزائريين وأثناء سنوات دراسته العليا التي قضاها في فرنسا كرّس كسوس حياته بصفة خاصة مع بقية أقرانه إلى التنسيق بين الجمعيات الطلابية.

2.1. نشاطه ونضاله بعد الحرب العالمية الأولى

بعد الحرب العالمية الأولى انطلق كسوس في نضاله ونشاطه السياسي والثقافي من فرنسا منذ أن تأسست جمعية الطلبةالمسلمين لشمال إفريقيا (AEMNAF) سنة 1919 التي حاولت تقديم يد العون والمساعدة للطلبة المغاربة والتونسيين الذين يفوق عددهم الطلبة الجزائريين وكان محمد العزيز كسوس هو الكاتب العام للجمعية خلال السنة الجامعية 1923–1924، ثم عضوا مؤسسا للجمعية (ج.ط.ش.إ.م) AEMNAF في فرنسا سنة 1927، وكانت له مشاركة في كتابة بعض المقالات في صحيفة طلبة الجزائر لسان حال الجمعية العامة لطلبة الجزائر AGEA حيث انطلقت حياته السياسية بهذه الكتابات المبكرة، ثم انضم إلى الفرع الفرنسي للأممية العالمية (ف.ف.ا.ع)

S.F.I.O Section française de l'internationale ouvrière ما بين سنتي 1931–1940 بغرض الدفاع عن حقوق ومطالب المسلمين الجزائريين بكونه نتاجا للإصلاحات التعليمية الجمهورية، كما سعى من خلال مؤهلاته الثقافية في الترويج للمطالب والمساواة لفائدة الجزائريين، وبعودته إلى الجزائر في بداية ثلاثينيات القرن العشرين حمل كسوس على عاتقه مسؤولية الصحافة الناطقة بلسان حال فيدرالية المسلمين المنتخبين بمقاطعة قسنطينة والتي تضم الدكتور محمد صالح بن جلول، وفي سنة 1931 حيث قام صديقه فرحات عباس بنشر كتاب عنوانه "الشاب الجزائري".

كما قام كسوس محمد العزيز من جهته في شهر فبراير 1935 بنشر كتاب حول مشروع قانون بلوم فيوليت بعنوان "حقيقة الغمة الجزائرية " La vérité sur le malaise Algerian" يحمل تصديرا خاصا بتوقيع محمد الصلاح بن جلول تضمنت محاور هذا الكتيب، برمي اللوم على النظام الاستعماري الذي يسلط فيه تجاوزات الأوربيين على الأهالي.

كما هاجم روح الغزو الموروثة منذ سياسة الماريشال بوجو في القرن التاسع عشر التي تجاوزها الزمن، ولتحقيق الاندماج السياسي دعا كسوس إلى أهمية العناية بالتعليم، وأعرب فرحات عباس سنة 1931 عن أسفه في العدد الضئيل للطلبة الجزائريين المسجلين بجامعة الجزائر التي لا يتجاوز فيها عدد الطلبة الجزائريين 50 طالبا من بين 2000 طالبا مسجلين بها، ويرى بأن هذه الأرقام تدعم أقوال المناوئين الكولونياليين التي تشير بأصابع الاتهام إلى الجهل المتفشي لدى الجزائريين وعدم امتلاكهم للقدرة اللازمة على الحكم وتسيير أنفسهم، غير أن فرحات عباس لم يدخر جهدافي الاتيان بالأدلة التي يزخر بها التاريخ الإسلامي من المساهمات والمؤسسات الايجابية والفعالة والتي تجاهلتها التيارات الفكرية التي بررت وجود النظام القائم على السيطرة الاستعمارية.

ويتضح من ذلك أن هؤلاء الشباب الجزائريين مقتنعون بفعالية النظام التعليمي الفرنسي غير أنهم كانوا رافضين للقبول بالتفوق السياسي النابع في الوقت نفسه من كل الأنواع المتعلقة بتطبيق القوانين التعليمية ومقومات النظام الاستعماري.

2. حقيقة الغمة الجزائرية وإصلاح المجتمع:

أصدر محمد العزيز كسوس كتابه سنة 1935 بعنوان La vérité sur le malaise Algerian عبّر من خلاله عن حالات التوتر التي أصبح يعيشها المجتمع الجزائري من جهة وتطلعات جيل من الشباب الجزائري الطامح إلى الديمقراطية في ظل ظروف كانت فيه الجزائر لازالت ترزخ تحت تأثير الأزمة الاقتصادية العالمية لسنة 1929، وأظهر فيه التناقضات التي كانت تميز حياة المجتمع الجزائري واستنكاره لمظاهر الظلم الذي يتميز به النظام الكولونيالي ومناقشته بعض القضايا المطروحة، واقترح من خلاله جملة من التدابير صبت كلها في معالجة مختلف أشكال الخلل، خاصة وأن هذا الكتاب قد زامن صدوره مع مشروع بلوم فيوليت سنة 1935 وأن محمد العزيز كسوس كان قد تقدم سابقا بمطالب تتعلق بمواصلة الإصلاح التعليمي وإعطاء دفع قوي لمشروع بلوم فيوليت الذي رأت فيه النخبة الجزائرية بمختلف أنواعها الاشتراكية أو الاصلاحية أو الشيوعية فرصة لتقديم شكواها ومطالبها الهادفة إلى تغيير الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الخاصة بالمسلمين الجزائريين.

1.2 أسس ودوافع الإصلاحات

في سنة 1929، وبمناسبة التحضير والاستعداد لإحياء الذكرى المئوية الأولى (100سنة) التي مرت على احتلال الجزائر كان قد تقدم بلوم فيوليت باقتراح يتضمن تخصيص مبلغ مالي قدره نصف مليار فرنك فرنسي لبناء المدارس الابتدائية في الجزائر وافقت عليه الهيئة الوزارية، غير أن المندوبين الممثلين للمصالح المالية للمعمرين رفضوا المصادقة على هذا المبلغ المالي الممنوح لفائدة المؤسسات التعليمية في الجزائر.

كما كان لأحداث مدينة قسنطينة يوم 5 أوت سنة1934 وما انجر عنها من الإهانة التي ألحقها الحاكم العام ووزير داخليته بأعضاء الوفد الممثل للمنتخبين المسلمين برفضه استقبالهم كان من بين الأسباب التي استفزت محمد العزيز كسوس ودفعته إلى طرح آرائه وأفكاره في كتابه "حقيقة الغمة أو الضيق الجزائرية" سنة 1935 مستنكرا كل أنواع الاستخفاف والحرمان للجزائريين، وخاصة في مجال التعليم العمومي لأنه كان لا يزال يؤمن كغيره من النخبة المفرنسة بقيم الديمقراطية والحرية التي استقاها من المدرسة الكولونيالية وتوقعه من فرنسا تحقيق ديمقراطية تكون في مستوى المبادئ التي تنادي بها، ولهذا كانت مطالبته بتمكين أبناء جيله من الحق في الاستشارة سواء تعلق الأمر بتحسين ظروف معيشة الجزائريين أو باحترام مبادئ الجمهورية الفرنسية.

كما دفعته إلى تأليف هذا الكتيب واختيار لفظ الغمة أو الشعور بالضيق، وذلك بإشارة إلى التناقضات الموجودة في النظام المدرسي الجمهوري والدفاع عن النخبة الجزائرية المندمجة ثقافيا والتهمة بالعداء لفرنسا التي تعرضت لهجوم من قبل المعمرين الذين قال عنهم كسوس بأنهم شكلوا كتلة مناهضة للفرنسيين وهو المهتم بالدفاع عن هذا الجيل من الشباب الذي كان ينتمي إليه هو نفسه والمتكونين بمدرسة الجمهورية ويمثلون الجيل المبادر بالإصلاحات المؤسسية بدلا من السياسية وقد كان جادا في أن له رغبة في الانفصال عن فرنسا وفي اعتقاده لا وجود لأمة تاريخية جزائرية وتحقيق ثورة اجتماعية يجب على الجزائر أن تسير وفق نهج البلدان الأوربية (ص.9-10 ,1935, id) والتمكن من بلوغ تحررها السياسي.

2.2 انتقاداته واقتراحاته في الإصلاحات :

يمكن القول بأن مضمون فكرته الرئيسية تتلخص في عدم اهتمام النظام التعليمي الكولونيالي بتوفير المهنيين المؤهلين لتحديث الاقتصاد الجزائري، كما أدان رغبة النظام الكولونيالي في إحكام سيطرته على الجزائر وإبقاء الجزائريين في فقر ثقافي واقتصادي مدقعين(Id. 1935. 9) فقد أشار إلى: " الافتقار وندرة التقنيين والمفكرين ذوي الدرجة العليا على حد سواء... فهناك بعض المئات ذاوي تكوين أدبي أو قانوني ولا يوجد تكوين كوادر علمية تتوفر على مستوى علمي دقيق تكون لها القدرة على تشكيل قوى حقيقية للاقتصاد الحديث، ويرى بأن المشكل الحقيقي هنا في أنه ليست لنا القوة التي تمكننا من استقلال ذواتنا، وأن أي انتفاضة قد تمثل انتحارا جماعيا حقيقيا ".

ثم قدّم أرقاما تدعم وصفه للوضع التعليمي الكارثي للجزائريين في سن التمدرس "يرى بأن المشكل الجزائري يكاد ينحصر برمته في التعليم العمومي الذي يكاد يكون غير موجود، حيث أن عدد الأطفال الذين هم في سن التمدرس يقدر عددهم بحوالي 950000 بإمكانهم الذهاب إلى المدرسة مقابل 1300 قاعة للتدريس، تستقبل منهم 65000 تلميذا، وهذا يعني أن هناك قرابة 900000 تلميذ محكوم عليهم بالأمية مدى الحياة ".

ومن ذلك يقترح كسوس إنشاء 500 قاعة للتدريس في المرحلة الابتدائية على الأقل في الجزائر كلها مع مواصلة الإصلاح الذي يكون بمعدل 200 قاعة للتدريس يجب إحداثها في كل سنة لاستدراك النقص الهائل الذي تعود أسبابه إلى السياسة الكولونيالية، كما اقترح أيضا إيجاد تعليم تقني مهني بالمعنى الحقيقي ، يعمل على تكوين تقنيين لهم القدرة العلمية التي تمكنهم من مواجهة التحديات التي تشكل عائقا في تحديث البنى الاقتصادية للبلاد (نفسه.Id. 1935. 41).

كما أكد في المطالبة أكثر في توجيهه للتعليم الذي ينبغي أن يكون أساسه ومضمونه مهني بالأساس، فالمعلمون مستعدون جميعا لإدخال الابتكارات العلمية والعملية في مدارسهم بالدرجة الأولى.

فالتعليم المهني لايمكن تجسيده إلا بعد تحقيق التعليم الابتدائي خاصة وأنه لا توجد في أوساط الأهالي الصناعات الخاصة إلا بنسب قليلة لذا يجب بذل الكثير من الجهد في تعليمهم مهنا تؤمن لهم السبل وتوفر لهم أشغالا لكسب قوت حياتهم اليومي.

ولتحقيق ديمقراطية التعليم العالي أعرب محمد العزيز كسوس عن أمله في بناء حي جامعي في مدينة الجزائر يأوي جميع التلاميذ الممنوحين ثم عاد بعد سنوات في مقالاته إلى التركيز على ضرورة تشكيل " طبقة متوسطة تمتلك اللغة الفرنسية " التي يمكن من خلالها تكوين طبقة حاكمة باسم الجزائريين تدافع عن مصالحهم وحقوقهم في المساواة.

كما أعرب عن تقديره "Augustin Berque " حول ماكتبه في موضوع التاريخ الاجتماعي المنشور ستة 1947 بمجلة "revue Africaine" وما نشره أيضا في مجلة " revue de la méditerranée" سنة 1949. واقترح إقامة تمثال تذكاري له بمدينة الجزائر مكان تمثال بوجو" Bugeaud" بساحة إيسلي في مدينة الجزائر ، كما رأى بأن انهيار الطبقة المتوسطة تعود مسؤوليتها إلى سياسة الغزو الفرنسي التي عملت على تكوين بورجوازية إدارية في خدمة النظام الاستعماري، كما اعتقد بأن المؤسسات الداعمة للنهج الاستعماري هي الخصم والعدو الرئيسي لفرنسا الجمهورية والجزائريين.

3. كسوس ومشروع بلوم فيوليت:

في شهر سبتمبر 1936 تخلى كسوس عن إتمام مقاله الموسوم بـ: الوفاق الفرنسي-الإسلامي (l'entente Franco-musulmane) فأتمه من بعده صديقه فرحات عباس في شهر ماي 1937 وفي نفس الوقت غادر كسوس قسنطينة وتوجه إلى العمل في صحيفة " Oran républicain" كما اشتغل في الوقت نفسه معيدا بثانوية وهران بهدف تأمين قوت حياته ومزاولة مختلف أنشطته السياسية والصحفية وقام في الفترة الممتدة ما بين22فيفري إلى26 مارس1937 بكتابة عشر مقالات كلها تتعلق بالتمثيل البرلماني للمسلمين الجزائريين.

وكان النقاش حينها حادا وعلى نطاق واسع في الجزائر حول المقترحات الواردة في مشروع " بلوم فيوليت " ورأى كسوس ضرورة وضع هذا البرنامج المتعلق بالإصلاحات في منظور تاريخي وباستحضار ه لأعمال البرلمانيين ومبادرات غيرهم من الشخصيات

الجزائرية والفرنسية ممن انخرطوا في إصلاح المؤسسات فسعى إلى إبراز المفارقات السياسية والقانونية التي كانت تقف في وجه النخب الجزائرية الفرنسية من الحصول على الجنسية أو حقوق المواطنة، ورأى كسوس بأن العقبات الرئيسية تكمن في المعمرين الذين كان هدفهم الحفاظ على امتيازاتهم خوفا من أن ينازعهم فيها المنتخبون الجزائريون من أعالي المنصة البرلمانية وفي الإدارة الكولونيالية على مستوياتها العليا.

1.3 تأييده لمشروع بلوم فيوليت

تمثلت رؤية كسوس في مشروع بلوم فيوليت باعتباره الطريق الأوحد الذي يقف في وجه العقبات المتكررة والسماح لأكثر من 20000 جزائري من دخول "المدينة الفرنسية" وبعدها بعدة أشهر نشر كسوس في الصحيفة الوهرانية استطلاعا للرأي حول مدى تأثير مشروع "بلوم فيوليت" تحدث فيه بجرأة تتعلق بإعطاء الكلمة للجزائريين في القضايا السياسية التي تهمهم مباشرة الأمر الذي زاد من حدة النقاش بين مختلف التيارات السياسية الجزائرية وشمل الاستطلاع الذي امتد ما بين 19 أفريل و6 جوان 1937 ما عدده 146 من الجزائريين المؤيدين لهذا المشروع بأسئلة مركزة حول " أهداف الإصلاحات وأبعادها " ومدى إمكانية معرفة الوسط الذي يعيشون فيه، فجاءت الردود مؤيدة لهذا المشروع.

2.3 نشاطاته بعد الحرب العالمية الثانية

في سنة 1940 ترك كسوس صحيفة Oran Républicain، والتحق بمنزله العائلي في العزابة "جيماييس سابقا" واستمر في نشاطه الفكري حول الإصلاحات الواجب تطبيقها، كما شارك سنة 1943 في تحرير بيان الشعب الجزائري مع صديقه فرحات عباس. "Manifeste du peuple Algérien"

وفي شهر يناير من سنة 1944 قام بالدفاع عن هذا النص أمام لجنة الإصلاحات الخاصة بالمسلمين لدى الفرع الفرنسي للأممية العالمية(ف. ف. أ.ع)، وفي شهر سبتمبر من نفس السنة قام رفقة صديقه فرحات عباس بتأسيس صحيفة المساواة "Egalite" وكان محررها الرئيسي فوجه من خلالها انتقادات قاسية للشيوخ ذوي العمامات ووصفهم بعبارة "بني وي وي" بإشارة إلى الدكتور بن جلول الذي كان قد وضع تصديرا

لكتيبه قبل عشر سنوات. كما نشر مقالات تتضمن محنة الجزائريين ومعاناتهم وتوجيه اللوم إلى السلطات الكولونيالية لإصرارها ورفضها الاستماع للآراء التي تصب في اتجاه مبادئ الجمهورية.

وفي 17 جويلية 1948 انتخبته الجمعية الوطنية مستشارا للجمهورية بولاية قسنطينة كممثل منتخب من طرف الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري union démocratique du manifeste algérien رفقة: أحمد بومنجل، أحمد الطاهر، أحمد يحي، ولم تكن فترة طويلة كانت له فيها مداخلة في 20أوت من نفس السنة تحدث فيها عن القضايا المتعلقة بالتربية الوطنية ولم يتقدم بعدها في انتخابات 7نوفمبر 1948 والمسار الذي دافع عنه في الانتقال من المدرسة التقليدية إلى المدرسة الجمهورية أبرز التناقض بين النظام الكولونيالي والروح الديمقراطية التي تمثل أسس الجمهورية الفرنسية.

وواصل كسوس نشاطه الفكري والسياسي في مهنة التعليم ببسكرة إلى غاية 1955حيث تولى منصب رئيس للخدمة الإعلامية لوفد المسلمين المنتخبين المسماة مجموعة (61)م أنشأ نشرية للجالية الجزائرية التي تصدر كل أسبوعين في الفترة مابين شهر أكتوبر 1955وشهر أوت 1956تضمن العدد رقم (01) رسالة تدعيم من طرف السيد البيركامو بعنوان "رسالة إلى ناشط جزائري " وفي سنة 1959 تم تعيينه مفتشا عاما للصحة والسكان. انتقل بعد استقلال الجزائر إلى العلاج في فرنسا وتوفي بباريس بتاريخ 13ماي 1965.

خاتمة

من خلال ما تم عرضه من مسار حياة وأفكار شخصية محمد العزيز كسوس وتحليل مختلف مراحلها نستخلص نتيجة مفادها أن المدرسة الفرنسية بالجزائر ومنذ انطلاق برامجها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وما بعده في النصف الأول من القرن العشرين يتبادر إلى الذهن مدى التناقضات الممنهجة في السياسة التعليمية من طرف إدارة الاحتلال ومنظرو وخبراء رجال التربية و التعليم في الجزائر، وهذا التناقض الذي أدركه محمد العزيز كسوس بنفسه بمرور الأيام والسنين على الرغم من أنه كان نتاج هذه المدرسة الاستعمارية، والمدافع عن سياسة

الإدماج التي كان يرى فيها الحل الأنسب لمشاكل الأهالي الجزائريين باعتباره أحد نماذج النخبة الفرنسية في الجزائر.

ومن ذلك فإنه كان يرى بأن الإصلاحات التعليمية في الجزائر هي وسيلة للرقي الاجتماعي والاقتصادي، وخاصة منذ أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حين رأى بعض أتباعه قد تمكنوا من تولي مناصب في الإدارة الاستعمارية بالجزائر، وبهذا اعتبروا أن ذلك يشكل لهم التقييم الحقيقي لما عرفه الجزائريون من فوارق قانونية واجتماعية وتباينات اقتصادية، ولا مساواة سياسية على الرغم من أنها كانت تحظى بالمصادقة التي توفرها آليات الجهاز القانوني الكولونيالي.

والملاحظ أن محمد العزيز كسوس كان رجلا تحذوه رغبة قوية في تحقيق التحرر السياسي في ظل الارتباط الفرنسي الأوربي ، ويمكن حسب اعتقاده تلخيص شعاره في عبارات إلى إدارة مفادها " لقد بادرتم إلى تعليمنا وتكويننا من أجل دعمكم، وإصلاح هذا البلد وفقا للمبادئ التي آمنت بها فرنسا الجمهورية، فأنصتوا لنا ودعونا نعمل لتحقيق ما تؤمنون به " وبإمكاننا أن نقول أن مؤلف كتاب حقيقة الغمة الجزائرية قد أصبح مسلوبا أو مندمجا في ثقافة أخرى غير أنه اختار بمحض إرادته موضعا لنفسه شكل منه أحد أعضاء النخبة الجديدة من الطبقة المتوسطة الجزائرية.

كما أننا ندرك من خلال مواقفه تلك القدرة التي مكنته من فهم التغييرات الطارئة بالبلاد أقرب إلى الاشتراكيين الذين لا يرون وجودا للأمة الجزائرية على هامش فرنسا. وفي شهر ديسمبر من سنة 1937 شكل الفشل الذي مني به مشروع "بلوم فيوليت " منعرجا سياسيا انعكس فيه الأمر على مواقف الشباب الجزائري الذي بدأ التحول فيه من الاندماجيين إلى الفيدراليين.

كما أن كتابات محمد العزيز كسوس قد أظهرت للعيان ما كان يراوده من ريب حول الهوية الجماعية التي كانت تميز أبناء جيله، وفي حالته الخاصة التي يتحدث فيها عن " الغمة" ،فهي تمثل إحساسا عميقا يتعدى المطالب الاجتماعية والاقتصادية وهي الصعوبة التي كان يتجرعها مفكر متفرنس مرتبط بشعبه بغرض المواءمة بين شعوره الذاتي وشخصيته ذات الطابع الاجتماعي الذي ينتمي إليه (Levi, 1989).

أما ما رآه كسوس حول الإصلاحات التعليمية وما قدمه من اقتراحات في سنة 1935 فإنها لم تؤخذ بعين الاعتبار إلا في سنة 1944 والتي وردت في الإعلان الخاص بالتمدرس الشامل، كما كان الأمر أيضا في مؤتمر برازافيل المنعقد من تاريخ 30 يناير إلى غاية 8 فبراير 1944 تقدما في بناء المؤسسات على الرغم من أن الجزائر لم تكن شريكا فيها. كما استخدم كسوس نفس الأسلوب التحليلي والبلاغي الموجود عند خصومه من الفرنسيين في دفاعه عن المطالب السياسية لإخوانه من الجزائريين وهذا أمر يدل على المستوى التعليمي الذي تمكن من بلوغه والتأثير الثقافي الذي نهل منه في المدرسة الفرنسية في الجزائر وفي فرنسا.

المراجع

1- أبو القاسم سعد الله، 1998. تاريخ الجزائر الثقافي 1830 – 1954، مجلد 3، الجزء السادس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 01.

2- أوليفيي لوكور غرانميزون، 2008. الاستعمار الإبادة: تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية، ترجمة نورة بوزيدة، دار الرائد للكتاب، الجزائر.

3- بيرفيلي غي، 2007. الطلبة الجزائريون في جامعة الجزائر الفرنسية 1880–1962، ترجمة: م.حاج مسعود وآخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر.

4- أوديل مورو، وآخرون، 2014. الحركات الإصلاحية وإصلاح نظم الدولة في بلدان المغارب خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، ترجمة: خالد بن الصغير، معهد الدراسات المغاربية المعاصرة ط 1.

5- دويدة نفيسة، 2016. رابح زناتي ومشروع الاندماج: المرجعيات والأسس 1877– 1952، مجلة أفكار وآفاق، العدد 07، جامعة الجزائر 2، الجزائر .

6- شارل روبير أجرون، 2007. الجزائيون المسلمون وفرنسا 1871 – 1919، ج 2، ترجمة حاج مسعود وآخرون، دار الرائد للكتاب، الجزائر.

7- شريف بن حبيلس، (د.ت). الجزائر الفرنسية كما يراها أحد الأهالي، ترجمة عبد الله حمادي وآخرون، المسك،الجزائر.

8- Abbas Ferhat, 1981. Le jeune algérien, éd, Paris, éditions Garnier.

9- Ageron Charles-Robert, 1979. Histoire de l’Algérie

contemporaine, 2, de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération (1871 – 1954), Paris, PUF.

10- Ameur-Zaïmèche Haoua, 1998. Anciennes et nouvelles élites de la commune mixte de Collo, mémoire de maîtrise en histoire contemporaine, Paris, université de Paris I.

11- Benammar Benmansour Leila, 7 oct 2007. El Watan, Mohamed El Aziz Kessous: un combat pour l'égalité.

12- Berque Augustin , 1949. Esquisse d'une histoire de la seigneurie algérienne « Revue de la méditerranée » n° 29, 18 - 34, n° 30, 168 – 180.

13- Berque Augustin, les intellectuels algériens « revue africaine » t 91, 1er et 2èmetrim, 123 – 151, 3ème et 4èmetrim, 260 – 276.

14- Charnay Jean-Paul, 1991. La vie musulmane en Algérie d'après la jurisprudence de la première moitié du XXe siècle, rééd., Paris, PUF.

15- Collona Fanny, 1975. Instituteurs algériens (1883–1939), Paris, Presses de la FNSP.

16- Collot Claude, 1987. Les institutions de l'Algérie durant la période coloniale (1830 – 1962), Paris CNRS Èditions, Alger, OPU.

17- Kaddache Mahfoud, 1993. Histoire du nationalisme algérien. Question nationale et politique algérienne, (1919–1951), Alger, ENAL, vol. 2.

18- Kessous Mohammed El Aziz, 1935. la vérité sur le malaise algérien, Bone, imprimé, acompte d'auteur.

19- Levi Giovanni, 1989. Les usages de la biographie, Annales ESC, Paris, vol. 44, n° 6, novembre-décembre, 1325 – 1336.

20- Pervillé Guy, 1985. Aziz Kessous, Parcours, n° 5, automne, 37–39.

21- Truphemus Albert, 1935. Ferhat instituteur indigène, Alger Impr, Soubiron.